آثار قيِّمة

مارية القبطية

تحقيق في سيرتها وموطنها

للعلامة حفني ناصف

تقديم وتعليق/ عبد الفتاح جمال

تعريف بالبحث

هذا البحث قدمه العلامة الدرعمي حفني ناصف رحمه الله في مؤتمر المستشرقين[١] سنة سنة ١٩١١م في بلاد أثينا بصحبة الأمير أحمد فؤاد - ولم يكن ولي سلطنة مصر بعد - وأمير الشعراء أحمد شوقي بك وشيخ العروبة أحمد زكي باشا والعلامة أحمد عمر الإسكندري .

تقدَّم فيه بهذا البحث وببحث آخر في رقيم عربي من بلاد اليمن[٢].

وسبب البحث كما ذكر في مقدمته أنه أراد أن يحقق الصواب في ضبط حاء حفني، هل هو بالكسر كما هو الشائع أو بالضم كما سمعه من أهل الصعيد أو بالفتح كما سمعه من الشوام، فأراد أن يعرف أي الأقوام أصح نطقا وأمتن ضبطا، فشرع في البحث في القاموس فلم يظفر بشيء، ثم وجد في معجم البلدان ما نصه «حفن بفتح الحاء ناحية من نواحي مصر، وفي الحديث: أهدى المقوقس إلى النبي ﷺ مارية من حفن من رستاق أَنْصِنَا»، ووجد اسم قرية أخرى من قرى مصر تدعى (حفنا).

وبعد أن حقق ضبط اسمه، وجه البحث من حفن إلى أنصنا التي أهدى المقوقس منها مارية إلى النبي ﷺ، فرجع إلى كتاب الانتصار لابن دقماق فوجد فيه: «وأنصنا بلدة قديمة

---

(١) مؤتمر المستشرقين أو مؤتمر المتعربين أو علماء المستشرقيات هو عادة جرت لعلماء المشرقيات أنهم يعقدون مؤتمرًا عامًّا في كل سنةٍ أو سنتين وينتخبون له بعض البلاد المشهورة موطنا للاجتماع . مجلة لغة العرب (ج ٦ / ص ٧٩٤) ، مجلة الزهراء (المجلد الرابع / ص ٤٩٤ ، ٤٥٠) ، الهلال العدد ١٣ من السنة الثانية عشرة، ١ إبريل ١٩٠٤ - ١٥ محرم ١٣٢٢ .

(٢) مجلة لغة العرب (ج ٢/ ص ٢٥) . لم أعثر على هذا البحث ولم يشر إليه محمود غنيم في ترجمته لحفني ناصف .

بها آثار عظيمة ... وهي على ضفة النيل الشرقية قبالة الأشمونيين»، فذهب إلى قرية الأشمونيين بالمنيا فعرف من أهل القرية كثيرا من المعلومات التي استند إليها في بحثه عن قرية مارية القبطية سرية رسول الله ﷺ، وانتهى إلى أن قرية حفن هي القرية المعروفة الآن بالشيخ عبادة[٣].

ثم فصل الكلام على مارية رضي الله عنها، وقصة إهدائها للنبي ﷺ، والهدايا التي أهداها المقوقس إليه غير مارية رضي الله عنها.

وثم تحدث بإيجاز عن الرق في مصر وأنه لم يكن مقيدا بقيود الشريعة الإسلامية بل كان الاسترقاق واسع النطاق فكان يحصل بالحرب والاختطاف والعجز عن أداء الدين وغير ذلك.

وختم بحثه قائلا: «وكما أهدي إلى محمد جارية من مصر أهدي لجده إبراهيم جارية منها وهي هاجر أم إسماعيل فيحق لنا نحن المصريين أن نفخر بمصاهرة هذين الرسولين الكريمين وندل باتصالنا بمقاميهما الرفيعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»[٤].

ملحوظة:

قال المؤلف في نهاية بحثه: «وقد كتبت هذه العجالة في يوم الإثنين ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٣٠ بلا تسويد، فمن وجد فيها عيبا فليصلحه. والعصمة لله وحده».

لذلك فقد أصلحت بعض الأخطاء التي وقفت عليها في الهامش، وميزت بين تعليقات المؤلف وتعليقات

(٣) وقد رفض هذا القول محمد إبراهيم الفحام في بحث نشره بمجلة منبر الاسلام في العدد ٥ من السنة السابعة والعشرين جمادى الأولى ١٣٨٩م بعنوان "مارية القبطية وموطنها في مصر" ، ورفض استناد حفني ناصف لروايات أهل القرية: "ولا تصلح الروايات التي يتوارث أبناء القرى ترديدها مصدرا لاستنباط الحقائق التاريخية".

(٤) وانظر حفني ناصف بطولته في مختلف الميادين للشاعر محمود غنيم ص ١٥٧ : ١٦٠. والقاموس الجغرافي لمحمد رمزي ج١ / ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ (حفن). تراجم سيدات بيت النبوة لعائشة عبد الرحمن ص ٣٩٦ : ٤١٠ .

التصويب بوضع اسم المؤلف بين قوسين (حفني) في نهاية تعليقاته.



ترجمة حفني ناصف

(١٢٧٢- ١٣٣٨ هـ) (١٨٥٦ – ١٩١٩م)

هو محمد الحفني بن محمد بن إسماعيل بن خليل ناصف.

ولد في قرية بركة الحج بالقليوبية، وحفظ القرآن الكريم بكتّاب القرية، ثم التحق بالأزهر مدة عشر سنوات (١٨٦٩ - ١٨٧٩) درس فيها علوم التجويد وحفظ المتون ودرس الفقه الشافعي، والنحو والصرف وعلوم البلاغة والعروض والقوافي والمنطق والتوحيد والحديث والتفسير، وحصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الأشموني، ثم التحق بمدرسة دار العلوم عند إنشائها، وحصل على إجازتها (١٨٨٢) فدرس الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والتاريخ والجغرافيا ووظائف الأعضاء، ومبادئ اللغة الفرنسية.

اشتغل مدرسًا بمدرسة الصم والبكم والعميان ثلاث سنوات، وتنقل في وظائف وزارتي المعارف والحقانية (العدل)، وفي أثناء عمله بمدرسة الحقوق اشترك في ترجمة القوانين المصرية، كما اشتغل في القضاء الأهلي عشرين عامًا، وكان آخر مناصبه فيه وكيل محكمة طنطا الكلية.

وعين أخيرًا المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية.

كان من دعاة إنشاء الجامعة المصرية الأهلية (١٩٠٨) وقد تبرع لها، ورأس لجنة الاكتتاب، ثم انتخب أول رئيس لها.

آخر عمل مارسه كتابة القرآن الكريم بخط يده، حسب قواعد الإملاء الحديثة.

عاش في عدة مدن مصرية، وطاف ببعض الأقطار العربية، وتركيا، وبعض بلدان أوروبا.

تتلمذ على يديه: مصطفى كامل - أحمد شوقي - أحمد لطفي السيد - طلعت حرب - طه حسين - أحمد زكي (شيخ العروبة)، وغيرهم.

اشترك مع الشيخ محمد عبده في تحرير «الوقائع المصرية» وهو

ما زال طالبا بمدرسة دار العلوم، وكان يكتب في «الأهرام» بتوقيع «إدريس محمدين»، كما شارك في تحرير «المؤيد» التي كان يصدرها الشيخ على يوسف.

واشترك في الثورة العرابية بخطب كان يلقيها ويكتبها ويوزعها على خطباء المساجد والشوارع، وتعلم النشان ليشترك في جبهات القتال على يد شيخه حسن الطويل، وهو طالب بالسنة الرابعة بدار العلوم.

شارك في تأسيس المجمع اللغوي (الأول) ونادي دار العلوم.

نال رتبة البكوية (من الدرجة الأولى) واعتذر في زمن السلطان حسين كامل عن عدم قبول رتبة الباشوية.

وكان يتجنب في شعره المدح والاستجداء.

مؤلفاته:

- شعر حفني ناصف جمعه ولده مجد الدين حفني ناصف.
- نثر حفني ناصف جمعه تلميذه محمد مهدي علام.
- تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية.
- مميزات لغات العرب.
- رسالة في المقابلة بين لهجات بعض سكان القطر المصري.
- الدروس النحوية بالاشتراك.

وتوفي بمدينة حلوان جنوبي القاهرة.



البحث

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله ومصطفاه، وعلى آله الطاهرين وصحابته أجمعين.

وبعد فهذا بحث نفيس ومطلب عزيز، ساقني إليه نظر في نفسي وتفكر في شخصي، ودعاني إليه أمر لا يعني غيري، فحدا بي تسلسل الفكر واطراد النظر إلى أن خرجت من مضايق الشخصيات إلى باحات الكليات وجاوزت ما يهمني إلى ما يهم غيري، وطرت بأجنحة الفكر في الهواء، وضربت في الأرض، وأرض الله واسعة الفضاء، حتى اهتديت إلى حلقة من العلم كانت مفقودة، وظفرت بضالة كانت منشودة، وتذكرت أمر إسحاق نيوتن إذ وقعت عليه تفاحة من شجرة باسقة فألم لشدة وقعها مع صغر حجمها، وعجب لثقلها مع خفة وزنها، فما زال النظر يهبط به ويرفعه، ويعلو به ويضعه، حتى وصل إلى تحقيق أمر الجذب العام، وأخرج للناس مبحثا ناضجا كان من أكبر الوسائط لحل غوامض المباحث الطبيعية وعوائص المطالب الفلكية.

ولا يمنعني من حمد الله بُعد ما بين درجتينا، وسعة الفرق بين مبحثينا، فالله يعطي النعم على حسب الهمم، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

كان الناس ينادونني منذ نشأتي باسم (حِفني) بكسر الحاء، ولما سافرت إلى صعيد مصر راعني من أهله نداؤهم لي بلفظة (حُفني) بضم الحاء، ثم لما خالطت أهل الشام رأيتهم ينادونني (حَفني) بفتح الحاء، فدعاني ذلك إلى العجب من هذا التخالف، وقلت في نفسي أي الأقوام يا ترى أصح نطقا، وأمتن ضبطا، ولعل ما عرفته منذ صغري خطأ والصواب غيره، فتناولت القاموس المحيط لأزيل هذه الحيرة فلم أجد فيه في مادة (ح ف ن) اسم بلدة يمكن أن يرد نسب اسمي إليها، وعهدي به يذكر البلاد، فانتظرت إلى أن رأيت كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، فإذا فيه: (حفن) بفتح الحاء ناحية من نواحي مصر، وفي الحديث:

«أهدى المُقَوقس إلى النبي ﷺ ، مارية من حفن من رستاق أنصنا».

ثم وجدت فيه اسم قرية أخرى تدعى حفنا، وقال إنها قرية من قرى مصر. فأدركت أن النسبة في اسمي لا بد أن تكون لأحد هذين البلدين أو لعظيم من أحدهما، وأن الصواب فتح الحاء كما ينطق أهل الشام، خلافا لما اعتدت سماعه منذ صغري.

ولم يقف فكري عند هذا الحد بل قلت في نفسي ماذا عسى أن تكون هذه الناحية التي أهدى المقوقس منها مارية إلى النبي ﷺ، فإني لا أعرف في مصر قرية بهذا الاسم (حَفْن) وأين يا ترى رستاق أنصنا الذي منه هذه القرية؟ ثم راجعت كتاب الإحصاء الرسمي للبلاد المصرية، فلم أجد فيه اسم حفن ولا أنصنا، فسبحلت وحوقلت، وتمثلت بقول الشاعر:

دِمَنٌ عَفَتْ ومحا معالِمَها
هَطَلٌ أجشُّ وبارِحٌ تَرِبُ

ثم بدا لي أن أراجع كلمة (أنصنا) في معجم ياقوت لعلي أجد لها بيانا شافيا فراجعت الكتاب ورأيت فيه: أَنْصِنا بالفتح ثم السكون وكسر الصاد المهملة مدينة أزلية من نواحي الصعيد على شرقي النيل، ونقل عن أبي حنيفة الدينوري أن اللبَخَ[1] لا ينبتُ إلا فيها وهو شجر تنشَر منه ألواح السفُن وربما أرعف ناشرُها. ويباع اللوحُ منه بخمسين دينارًا أو نحوها. وإذا شد منها لوحٌ بلوح وطُرِحا في الماء سنة التأما وصارا لوحًا واحدًا.

قال ياقوت: «وقد رأيت أنا اللبخ بمصر وهو شجر له ثمر يشبه البلح في لونه وشكله ويَقرُب طعمُهُ من طعمه، وهو كثير يَنْبُتُ في جميع نواحي مصر، وينسب إلى أنصنا قوم

(١) اللبخ المذكور في ياقوت هو غير الشجر المعروف الآن بهذا الاسم. وقد انقطع من الديار المصرية من ابتداء زمن القيصر أرفاد وهنوريوس في أوائل القرن الخامس من الميلاد . وكان في زمن عبد اللطيف البغدادي نادرا ثم انقرض بالكلية. واسم هذا الشجر باللاتينية "برسيا" وثمره جيد للمعدة وورقه يقطع الدم إذا جفف وسحق وذر على الموضع الذي يسيل منه الدم. ويقال إن هذه الشجرة كانت تقتل آكلها في بلاد الفرس، فلما انتقلت إلى مصر صارت لا تضر. وليس هو المخيط كما زعم بعضهم. (حفني)

من أهل العلم منهم أبو طاهر الحسين بن أحمد بن حَيون الأنصناوي مولى خولان، وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سليمان بن هاشم الأنصناوي المعروف بالطبري، روى عن أبي علي هارون بن عبد العزيز الأنباري المعروف بالأوارجي روى عنه أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمر الناقد بمصر».

وكلام ياقوت هذا وإن كان مفيدا لم يشف غلتي ولم يذهب بحيرتي، فرجعت ما طبع من كتاب الانتصار لابن دقماق فرأيت فيه ما نصه: «وأنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة. وكان بها مقياس صغير يقاس فيه ماء النيل وبعضه باق إلى الآن. وهي على ضفة النيل الشرقية قبالة الأشمونين».

وقال صاحب الانتصار في موضع آخر: «إن الأشمونين ذات كيمان عظيمة. وإن بانيها أشموم بن مصر، ونقل عن القبط أن أشموم بنى سردابا تحت الأرض من الأشمونين إلى أنصنا».

فانشرح صدري بعد مراجعة كتاب الانتصار، وبرقت أساريري، وقلت لقد كدت أظفر بضالتي، فإني أعرف قرية الأشمونين وأعرف أن بها كيمانا وأطلالا عظيمة، فلا بد أن تكون أنصنا في مقابلتها على ضفة النيل الشرقية. ولم ألبث أن سافرت إلى الأشمونين، ونظرت منها إلى النيل فوجدت على الضفة الشرقية أطلالا ممتدة بين قرية دير أبي حنس وقرية الشيخ عبادة، وتبينت بالنظر ومراجعة المصور الجغرافي صدق مقابلة هذه الأطلال وقرية الأشمونين.

فلم يبق بعد ذلك شك في أن هذه الأطلال أثر مدينة أنصنا الأزلية التي ذكرها ياقوت، فعبرت النيل وقضيت نصف نهاري في الدوران حول تلك الأطلال أجوس خلالها، ورأيت فيها من العمد الضخمة والتماثيل الفخمة، والأنقاض المتنافرة والمساحة الواسعة، ما يدل على أنها كانت مدينة محكمة البنيان مستبحرة العمران.

قال الإدريسي: «هذه المدينة هي مدينة السحرة التي جلب منها فرعون كل ساحر عليم لمغالبة موسى عليه السلام».

وذكر أبو الفداء وغيره ما لا يخرج عن كلام الإدريسي.

قال صاحب الخطط التوفيقية: «ويغلب على الظن أن السحرة إنما جلبوا من مدينة (بيز) التي تقرب من أنصنا، لأن أنصنا حديثة العهد فإنها بنيت في أيام القيصر أدريان لتكون مركزا للأقاليم القبلية بدل الأشمونين. وقد قام هذا القيصر من مملكة إيطاليا سنة مائة وثمانين من الميلاد، وساح في أرض مصر وأقام بمدينة طيبة، وكان مستصحبًا شابا جميلا يقال له أنثيويه وكان يحبه حبا شديدا، فقدر الله سبحانه أن غرق هذا الشاب في النيل قريبا من محل هذه المدينة، فحزن عليه القيصر حزنا شديدا وأمر بإنشاء مدينة لتكون تذكرة لنديمه هذا، وأمر بجمع الرومان المتفرقين في جهات القطر وأسكنهم فيها مع من جلبه إليها من بلاد الروم على عادة القياصرة قبله، وجعل لأنثيويه معبدا مقدسا. وكان كل قيصر بعد أدريان يزيد في زخرفتها، فبقيت فريدة في حسنها إلى أن دخلت الديانة العيسوية أرض مصر فالتحقت بمدينة طيبة وكان لها سور عظيم هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر في النيل حمل صخرة منه إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها. وبنى به صلاح الدين ما أحدثه من المباني في مدينة القاهرة. وفي الخطط الفرنسية أن صورة أنثيويه مرسومة على أكثر من عمد هذه المدينة، وأنها بنيت في موضع مدينة (بيز) ولذلك سميت بيز أنثيويه». انتهى كلام الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك بتصرف.

وقد اهتم بهذه القرية أجلاء الصحابة والتابعين، فقد اشترط الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية ضمن ما اشترط أن يعفي هذه القرية (حفن) من الخراج فأعفاها من الخراج. ولما قدم إلى مصر عبادة بن الصامت أيام عمرو بن العاص وتولى بعض الأعمال بها، بحث عن هذه القرية وبنى مسجدا يعرف للآن باسم مسجد سيدي عبادة، وقد تجدد بعد موته. وموضع هذه القرية الآن يعرف باسم الشيخ عبادة.

وقد زرت هذا المسجد فرأيت به ضريحاً في قبة عالية فسألت أهل

البلد: "لمن هذا المسجد؟" فقالوا جميعًا: "لعبادة بن الصامت"، فقلت: "إن عبادة بن الصامت رجع إلى الحجاز ومات هناك كما هو معروف من التاريخ، فلمن هذا الضريح؟" فقالوا: "له، لأن كثيرًا من الأضرحة يبنى باسم عظيم من الأولياء أو الصالحين وإن لم يكن مدفونًا به".

والذي كنت أتعب نفسي في التنقيب عليه وجدته مشهورا عند أهل هذه القرية، فإنهم يعرفون أن الأطلال التي بجانبها هي أطلال أنصنا، وأن بلدهم هذا موقع قرية حفن، ويقولون إن المسجد الذي بناه عبادة بن الصامت في موضع بيت مارية سرية النبي ﷺ.

فانبهرت من معلومات أهل هذه القرية وجهلي أنا قبل أن أبحث هذا البحث، وقلت في نفسي: أهل البيت أدرى بالذي فيه.

وإني وإن لم أجد سندا لمعتقداتهم من كتب المؤرخين فإني لا أستبعد شيئا مما قالوه: فإن عبادة بن الصامت وفد إلى مصر بلا شك وأقام في الصعيد زمنا كان صاحب الأمر والنهي فيه. ومثله من يعتني كل العناية بآثار آل بيت النبي ﷺ وتجديد ذكرى من ينتسب إليه، فلا بد أن يكون باختياره هذا الموضع لبناء المسجد مبنيا على سبب قوي، وليس هناك أقرب من هذا السبب الذي ذكره أهل هذه القرية "الشيخ عبادة".

وقد رغبت إلى مصور لأخذ صورة منظر هذه القرية ومنظر النيل أمامها (كما ترى في الرسم المنشور على صفحة ٧٢).



ذكر ترجمة مارية القبطية وسبب إهدائها إلى النبي ﷺ

ذكر أصحاب السير أنه كان على مصر من قبل الروم حاكم يقال له المقوقس[1] واسمه جيريج بن ميناء، وكان له علم بأسرار الكتب الدينية. وقد وفد عليه مرة المغيرة بن شعبة مع رهط من ثقيف، فسأله المقوقس: «ما صنعتم فيما دعاكم إليه محمد ؟» فقال المغيرة ولم يكن أسلم وقتئذ: «ما تبعه منا رجل واحد» فقال المقوقس: «كيف صنع به قومه ؟» فقال المغيرة: «اتبعه أحداثهم ولاقاه

(١) ومعنى المقوقس مطول البناء، وهذا لقب كل من ملك مصر. (حفني)

من خالفهم في مواطن كثيرة» قال: «فإلام يدعو ؟» فقال المغيرة: «إلى أن نعبد الله وحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعو إلى الصلاة والزكاة وتحريم الزنا والخمر» قال المقوقس: «إن هذا الذي تصفون منه نعت الأنبياء».

وقد بعث النبي ﷺ كتابا إلى المقوقس في عام الحديبية مع حاطب بن بلتعة اللخمي وكان مع جيد مولى أبي رهم الثفاري[1] فسارا إلى أن وصلا مصر وسألا عن المقوقس فقيل إنه في الإسكندرية، فسافر إليها حاطب وطلب مقابلة المقوقس فلم يتمكن من الوصول إليه لكثرة الحجاب فاستأجر سفينة وسار بها في البحر إلى أن حاذى مجلس المقوقس وكان في موضع مشرف على البحر وأشار بالكتاب الذي معه، فأمر المقوقس بإحضاره، فلما حضر ناوله الكتاب ففض خاتمه المقوقس فإذا فيه:

(١) كذا والصواب حاطب بن أبي بلتعة اللخمي وكان مع جبر مولى أبي رهم الغفاري

«بسم الله الرحمن الرحيم،

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يُؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]»

فاستدعى المقوقس حقا من عاج ووضع فيه الكتاب ودفعه لجارية له، ثم قال لحاطب: «ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وخرجه من بلده إلى غيرها؟» فقال حاطب: «ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله، فما له حين أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى ؟» ثم قال حاطب: «إنه كان قبلك رجل[2] يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم

(٢) يريد فرعون (حفني)

انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك. إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه مودة النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوما فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت من أدرك هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به».

فقال المقوقس: «أحسنت أنت حكيم جاء من حكيم» ثم طالب من حاطب أن يصف محمدا له فوصف له وأوجز، فقال المقوقس: «أفي عينيه حمرة ؟» قال حاطب: «ما تفارقه» فقال المقوقس: «أوبين كتفيه خاتم ويركب الحمار ويلبس الشملة ويجتزئ بالتمرات والكسر، لا يبالي من لاقى من عم أو ابن عم؟» قال حاطب: «هذه صفته» فقال المقوقس: «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج من الشام وهناك مخرج الأنبياء، فأراه قد خرج من أرض العرب في أرض جهد وبؤس. والقبط لا تطاوعني على اتباعه، وأنا أضن بملكي أن أفارقه» ثم قال المقوقس: «أنا لا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك أحد من القبط، فارحل من عندي ولا يسمع منك القبط حرفا واحدا» ثم دعا بكتابه، فكتب إلى النبي ﷺ هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم.
لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك؛ أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبثياب بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يقتصر المقوقس في هديته على ما ذكره في الكتاب، بل زاد عنه كما ترى في البيان الآتي:

أصناف الهدية

(١) مارية بنت شمعون، وكانت أمها رومية.

(٢) وجارية أخرى يقال لها سيرين، ولكنها أقل جمالا من مارية.

(٣) وجارية أخرى يقال لها قيسر

(٤) وجارية سوداء يقال لها بريرة

(٥) وغلام أسود يقال له هابو[١]

(٦) وبغلة شهباء، وهي التي سميت بدلدل

(٧) وفرس مسرج ملجم وهو الذي سمي بميمون

(٨) وحمار أشهب وهو الذي سمي بيعفور

(٩) ومربعة فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك

(١٠) وجانب من عسل بنها، وقد أعجب النبي به ودعا لبنها بالبركة

(١١) وألف مثقال من الذهب

(١٢) وعشرون ثوبا من قباطي مصر

(١٣) وجانب من العود والند والمسك

(١٤) وقدح من قوارير

قال حاطب: «فرحلت من عند المقوقس. ومعي حرس من الجند إلى أن بلغت أرض جزيرة العرب، فوجدت قافلة من الشام تريد المدينة فارتفقت بها وأرحبت الجند».

ولما وصل حاطب إلى المدينة سلم الهدية وكان من ضمنها طبيب فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى أهلك. نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع».

(١) كذا وصوابها هابور

وأهدى النبي ﷺ إحدى الجاريتين لحسان بن ثابت والأخرى لأبي الجهم بن حذيفة العدوي، وأبقى لنفسه مارية. وكان النبي ﷺ يحبها كثيرا . وكانت عائشة وحفصة من زوجاته تغاران منها وتتكلمان فيما بينهما فيها.

وكان النبي ﷺ يقسم أيامه بين زوجاته وسراريه. ففي يوم حفصة استأذنته في زيارة أبيها، فلما خرجت دعا مارية لتجلس معه. ولما رجعت حفصة علمت أن مارية عنده فامتنعت عن الدخول إلى أن خرجت ثم دخلت إلى بيتها وعاتبت النبي في ذلك، فأخذ يسترضيها وهي لا ترضى وما زالت به حتى حرم على نفسه مارية إرضاء لحفصة وعائشة. ففرحت حفصة وأخبرت عائشة بالأمر، فقالت عائشة: «قد أراحنا اللّه منها» فنزلت سورة التحريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ ﴾ [التحريم: ١ – ٢]،

ومنها ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾ [التحريم: ٤ - ٥]

فكفر النبي ﷺ عن يمينه، وأرجع مارية إلى ما كانت عليه.

وقد أسلمت مارية قبل أن تصل إلى المدينة، هي وسيرين بدعوة حاطب بن بلتعة.

وكانت مارية جميلة وبيضاء لأن أمها رومية، ولأنها من سلالة الروم الذين أسكنهم أدريان مدينة أنصنا. وكانت جعدة. وقد ولدت من النبي ولده إبراهيم في السنة الثامنة من الهجرة. ومات إبراهيم وعمره ثمانية عشر شهرا. وعاشت بعد النبي إلى أن ماتت في خلافة عمر بن الخطاب فصلى عليها ودفنت بالبقيع، وقبرها معروف هناك. وكانت وفاتها في السنة السادسة عشرة.

وترى في الصفحة ٧٢ من هذا الجزء صورة الكتاب الذي أرسله النبي ﷺ إلى المقوقس مع حاطب بن بلتعة منقولة عن نسخة محفوظة بدار الآثار في الأستانة، قيل إنه عثر عليها عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم في زمن سعيد باشا والي مصر.



خاتمة

لم يكن الرق عند المصريين والرومانيين مقيدا بالقيود التي قررتها الشريعة الإسلامية، بل كان أمر الاسترقاق واسع النطاق، فكما يحصل بالأسر في الحرب كان يحصل بالاختطاف وبتقريره من الحكومة على غير الأشراف، وبعجز المدين عن وفاء الدين وبسلطة الملوك على الرعايا بقيود معروفة في تاريخ القدماء من المصريين والرومانيين.

وكانت مارية وسيرين وقيسر وبريرة من هذا القبيل، ولم تكن الشريعة الإسلامية في وقت إهدائهن تمنع من تملك مثلهن باليمين.

وكما أهدى إلى محمد جارية من مصر أهدي لجده إبراهيم جارية منها، وهي هاجر أم إسماعيل فيحق لنا نحن المصريين أن نفخر بمصاهرة هذين الرسولين

الكريمين، وندل باتصالنا بمقاميهما الرفيعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

❖❖❖

وقد كتبت هذه العجالة في يوم الإثنين ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٣٠ بلا تسويد، فمن وجد فيها عيبا فليصلحه. والعصمة لله وحده.

حفني ناصف

